

ولا بين علماء عصر في هذا العلم أو ذاك. وتجرد قوم لتأليف كتب تراجم عامة مثل معجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاعر والوفاء بالوفيات للصفدي، وفي هذه الكتب تساق تراجم العلماء والأدباء من كل صنف، ويساق معها تاريخ دقيق لكل عالم أو شاعر أو كاتب دون نظر إلى بلده أو زمنه. وإنما دفع هؤلاء المؤرخين إلى ذلك شعورهم العميق بأن أصحاب هذه التراجم جميعاً شركاء في تراث واحد، ليكن علماً دينياً أو لغوياً أو نحوياً أو بلاغياً، أو ليكن شعراً أو نثراً. فجميعه تراث واحد، وهم لذلك يترجمون لهم أبجدياً واحداً بعد آخر، متنقلين مثلاً من لغوى إلى محدث إلى شاعر إلى فقيه دون ملاحظة أى ترتيب زمانى أو مكانى. وسار في نفس المنهج والاتجاه من جمعوا تراجم القرون المتأخرة من الثامن الهجرى إلى الثاني عشر، فلكل قرن من هذه القرون كتابه الخاص بعلمائه من كل نوع وأدبائه من كل لون، وهم مجموعون من العالم العربى جميعه من شرقيه إلى غربيه دون أى استثناء لبلد أو لعالم أولشاعر أولكاتب، إذ هم جميعاً حَمَلَة العلم والأدب في الوطن العربى جميعه، وينبغي أن يكون لكل منهم مكانه في الكتاب، وعادة يكون الكتاب كبيراً في مجلدات.

وهو شيء يعز على الفهم تبين طريقة استيفاء ذلك واستقصائه، إذ نجد مثلاً ابن حجر في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لا يكاد يترك عالماً بارعاً ولا أديباً ناهياً في العالم العربى إلا ويترجم له في كتابه بحيث يستطيع أن يستخرج منه الباحث في الحركة العلمية أثناء القرن الثامن الهجرى لأى قطر عربى من الأقطار كالأندلس، صورة هذه الحركة فيه وأهم أعلامها في مختلف العلوم، وبالمثل يستطيع الباحث في الحركة الأدبية بنفس القرن أن يرسم منه صورتها وبالمثل أهم الشعراء والكتاب في أى بلد من البلدان العربية كالعراق أو الشام. وهذا نفسه يقال عن كتاب الضوء اللامع الذى ترجم فيه السخاوى لعلماء القرن التاسع وأدبائه. وبالمثل الكتب التى ترجمت لمن عاشوا في القرون التالية من العلماء والأدباء، ونعجب كيف استطاع هؤلاء المؤرخون أن يتعرفوا على جميع أدباء العالم العربى وعلمائه في القرون التى اهتموا بها، وكأنما كانت هناك صلات